بعد أسبوع من الاكتشاف في الحديقة الوطنية بزمبرة وزمبرتة في تونس

هذه حالة الطّيور البحريّة المتوسّطيّة المميّزة و المهدّدة عالميّا بالانقراض

نبيل بن ابراهم

مثل مغامرين اضطرتهم حالة البحر للرسو بقاربهم على جزيرة صغيرة قمت صحبة فريق علمي بالمقام في جزيرة زمبرتة التي لا تمسح سوى هكتارين قصد متابعة تعشيش طائر بحري عائد للجزيرة اسمه جلم الماء المتوسطي . (PUFFINIS YELKOUAN)

وأرخبيل زمبرتة هو جزء من أول حديقة وطنية يقع إحداثها في تونس سنة 1977 تشمل كذلك جزيرة زمبرة التي تمسح 389 هكتار والتي تبعد عن الأولى مسافة 5 كلم ومجالا بحريا يقدر بـميل ونصف (حوالي 3 كلم) حول كل من الجزيرتين .

ولكن ما قصة الطائر العائد إلى زمبرتة ؟

قبل سـنوات قليلة فقـط كنت ومن سـواحل الهوارية الواقعـة في أقصى الشـمال الشـرقي لتونـس أنظـر إلى الجزيرتـين بعينـي العاشـق فهمـا لا تبعدان عني سوى 15 كلم – كنت أحلم بـأن تطأ قدمـيّ هاتـه الأرض العذراء وأن أكتـب للناس عن نباتاتها وطيورها وبحرهـا وعن روعة أن يحيا الإنسـان بتناغم مع هذه الكائنات .....

وكتب الله أن أزور الجزيرتين سنة 2009 فـي إطـار مهمة بيئيـة قادتها وكالة حماية وتهيئة الشـريط الساحلي بتعاون مع مبادرة P I M الفرنسـية لحمايـة الجـزر الصغرى بالمتوسـط وهدفت إلى التخلص من فئران زمبرتة التي هي أصناف دخيلة وباتت أعدادها الكثيرة تهدد وجود كائنات أخرى كجلم الماء المتوسطي الذي يأتي إلى الأرخبيل لوضع بيضة واحدة ولكن الفئران تقوم بأكلها .....

بعد سنتين أجد نفسي مرة أخرى في الطريق المؤدية إلى أعلى قمة في زمبرتة حيث يوجـد بيت قديم اخترناه لمقامنا ، في السماء كانت طيور نورس لوكوفي (Larus michahellis) الكثيرة العدد تدرب صغارها (التي لم تأخذ بعد لونها الأبيض الناصع) الطيران مادة أجنحتها مطلقة في الفضاء صيحاتها المعتادة .

والحقيقة أن هذا الطقس الاحتفالي يخفي مشـكلة بيئية حقيقية ناجمة عن الضغـط الـذي تمثله أعدادهـا الكبيرة (أكثـر مـن ألف فـرد) على مسـاحة صغيرة (2 هكتار) على تعشيش الطيور الأخرى القادمة إلى الأرخبيل .

بعد تناول أول وجبة طعام توجهنا إلى الساحل الجنوبي للأرخبيل للبحث وسـط الشـقوق الصخريـة القريبـة من البحـر عن آثار أعشـاش جلم الماء المتوسـطي فهـذا الطائـر المتوطن في البحر المتوسط يأتي منذ أشهر ديسمبر وجانفـي لاسـتطلاع الأماكـن المتاحة لوضع بيضته .

«فيمـا مضـى كانـت أغلـب هاته الشقوق ملجأ للفئران ، لذلك فإن الطائر كان لا يجرؤ عل التعشيش فيها»

هذا ما أسـره لي وهبـي الجوادي مهنـدس الغابات وممثـل وكالة حماية وتهيئة الشريط الساحلي عندما وصلنا.

يضع جلـم الماء المتوسـطي بيضه واحـدة بـين شـهري مـارس وأفريل لتفقس في النصف الثاني من شهر ماي ليعتمـد الطائر الصغير علـى ما يقدمه والداه من طعام حتى يصبح قادرا على الطيران منذ أواخر شهر جوان أي حين وصلنا إلى زمبرتة .

ولأنـه كأغلـب الطيـور البحريـة يمضي كامـل النهار فـي البحر باحثا عن الأسـماك والقشـريات التي يقتات منهـا ولا يعود إلى عرينـه إلا ليلا فقد بدأ أصدقائي باستكشـاف آثار الطيور داخل التجاويف الواقعة أسفل الصخور الكبيـرة فمثلا عندما نجـد بقايا ريش ناعم نقـر بوجود زوج معشـش ، في أحيـان أخرى كنا نجـزم عندما نلاحظ فضـلات حديثـة للطائر وفـي حالات نـادرة كنا نجد بيضة لـم تفقس وهذا يعنـي أن الزوج ربمـا تعرض لحادث ما .

كان الهـدف الأول لعمـل المجموعة هو رسـم خارطة توزيـع الطائر على الأرخبيـل لذلـك وقع أعطـاء رقم لكل صخرة كبيرة تحوي أسـفلها تجاويف بهـا بقايـا الطائر ثـم أخـذ إحداثيات الصخـرة عن طريق آلـة تحديد المواقع بواسـطة الأقمـار الاصطناعية G P S : فمثلا في المنطقـة الجنوبية للأرخبيل وأسفل الصخرة رقم 5 والتي إحداثياتها محددة بدقة يوجد ثلاثة أعشـاش وقد كان العمـل عسـيرا في بعـض المواقع فبعض التجاويف كانت متشعبة وعميقة (تصـل إلـى 5 أمتـار) و لذلك كنت أشـاهد أحيانا «سيلفان درومزي» وهو زوج الباحثة الفرنسية في مجال الطيور البحرية «كارين بورجوا» يستعمل مرآة عاكسة لأشعة الشمس لاستطلاع داخل بعض الشقوق .

وقـد كانـت المفاجـآت الجميلـة بانتظارنا أحيانا فلا أسـتطيع نسـيان لحظة وجدت فـي أحد التجاويف طائرا صغيرا لجلم الماء المتوسطي الذي ألاقيه لأول مـرة بلونيه الأبيض والأسـود : لقد قامت « كاريـن بورجوا» بإخراجه برفق ثم أخذ قياسات مثل وزنه ، طول جناحيـه ، طـول منقاره ثـم قامت في الأخيـر بتثبيت ختم معدني في سـاقه كتب عليه (mesum tunisie) وذلك لمتابعة مسار تنقلاته.

و لأن هدفنـا الثانـي هـو وضع هاته الأختام علـى أكبر عدد ممكن من

زمبرتّة وبجانبها الصخرة المسمّاة بالقنّة

وادي الزيتون بجزيرة زمبرة

نورس أدوين النادر عالميّا (ص/المغرب)

جلّم الماء الرمادي
الطائر المميّز لجزيرة
زمبرة

أعضاء الفريق المستكشف لطيور زمبرتة (ص/المغرب)

الطيور فإننا كنا نعود إلى نفس المكان ليلا وانتظار الطيور العائدة إلى أوكارها ولمسكها كنا نتبع الحيلة التالية: كنا نسد مداخل جحورها بواسطة أوراق صحف قديمة جلبناها معنا و عندما نسمع خفقان أجنحتها كنا نسرع بالإمساك بها برفق ثم أخذ القياسات المعتادة ووضع الختم المعدني و إرجاع الطائر إلى عرينه ...

في ظلمة الليل و عندما كنا ننتظر الطيور قالت لي «كارين بورجوا»:«لقد اختفى هذا الطائر كليا من جزيرة كورسيكا و جزئيا من جزر أخرى مثل بعض الجزر الصغيرة التابعة لمرسيليا و من جزيرة كريت اليونانية و لهذا فإن الإتحاد العالمي لصون الطبيعة UICN وضع هذا الطائر على اللائحة الحمراء التي تخصّ الطيور المهدّدة بالانقراض في خانة «شبه مهدد» .»

لقد وجدنا أكثر من 140 زوج لطائر جلم الماء المتوسطي و قد شعرت بفرحة داخلية فهذه أوّل ثمار نجاح مهمة إزالة الفئران من الأرخبيل التي شاركت فيها قبل سنتين فمثلا لم تكن أعداد أزواج هاته الطيور تتجاوز العشرين قبل سنوات قليلة...

و رجوع جلم الماء إلى زمبرته بكثافة جعلنا نبحث عن طائر آخر متوسطي نادر و مهدّد عالميا و هو «Hydrobates pelagicus» وهو أصغر طائر بحري حجما حيث لا يتجاوز طوله 17 صنتمترا و يتميز بلونه الأسود و بقعة بيضاء في مؤخرته و ذيله المربع الشكل.

لقد شاهدت سيلفان يفتح في أحد الليالي تسجيلا صوتيا به صوت الطائر فله خاصية الإنجذاب إلى أصوات أقرانه و بقينا ننتظر و لكن دون جدوى...

لقد أعدنا التجربة عدّة ليال و لكن يبدو أن « المليح يبطى» و هي عبارة محلية تونسية تعني أنّ كلّ حدث سعيد يتطلّب قدرا من الوقت ليأتي...

اكتشاف طيور زمبرتة

بعد أيام من إقامتنا بزمبرتة ركبنا على ظهر قاربنا السريع نحو الجزيرة الأم زمبرة و «للأم» خاصية فريدة وهو احتواؤها على أكبر عدد معشش في العالم من طيور جلم الماء الرمادي Calonectris diomedea الأكبر حجما من جلم الماء المتوسطي و ذو المنقار الأصفر و قد ذكر لي سيلفان قصة طريفة و هي أن العلماء كانوا يتوقعون أن تكون أعداد جلم الماء الرمادي في العالم في حدود ثمانين ألفا و لكن مهمة تعداد هذا الطائر في السنة الفارطة في زمبرة و التي شارك فيها سيلفان و كارين كذبت هذه التوقعات فقد وجد أكثر من 141 ألف زوج معشش مما يعطي هذا الموقع أهمية عالمية بالغة فمثلا قامت اليونسكو و منذ سنوات عديدة بإدراجه ضمن محميات المحيط الحيوي.

و إذا حل الظلام و أنت بزمبرة صيفا فستشهد ظاهرة طبيعية فريدة و هي ظهور أصوات غريبة في السماء تشابه كثيرا صراخ رضّع في سمفونية سماوية رائعة و قد تساءلت عن مصدر هاته الأصوات فقال لي وهبي الجوّادي أنّ أحد الزوجين وحين عودته ليلا إلى عرينه يطلق صيحة إلى رفيقه ليردّ عليه هذا الأخير و ربمّا كان ذلك لتحديد موقعه بالضبط.

ولأننا نحب هاته الطيور فقد توجهنا عن طريق البحر جنوب الجزيرة إلى ساحل «وادي الزيتون» لنعاين تعشيشها و لنبحث عن أعشاش محتملة لجلم الماء المتوسطي ...

لقد كانت التجربة جميلة فهذا المنحدر الصخري الذي يحمل في أعلاه بعض أشجار الزيتون البرية هو صورة مصغرة لزمبرة فتحت كل تجويف صخري يوجد طائر يحضن بيضة وحيدة في جوّ من السلام الأبدي.

لم نجد أثرا لجلم الماء المتوسطي بـ«وادي الزيتون» و يبدو أن الطائرين عقدا اتفاقا: واحدا في زمبرتة و الآخر في زمبرة.

على الساحل الشمالي لزمبرة يعشش طائر «نورس أدوين» Larus adouinii الذي لطالما تمنيت مشاهدته في الطبيعة فقد قرأت أنه نادر وحساس و مهدد بالانقراض لذلك فهو مسجل ضمن القائمة الحمراء للأتحاد الدولي لصون الطبيعة UICN و هو يختلف عن «نورس لوكوفي» بمنقاره الأحمر القاني و حجمه الأصغر و لأجل ذلك توجّهنا إلى سواحل «عنق الجمل» لملاقاته و حساب أعداده و هذا المكان مميز بتمثال صخري نحتته الطبيعة على صورة جمل رابض.

حتى لا نزعج الطيور قمنا بالاقتراب ببطء و الاختباء وراء صخرة كبيرة على بعد معقول و قد كانت متعتي الشخصية لا توصف فنورس أدوين يعشش في مجموعات على الساحل المغطى بالحصى دون اللجوء إلى تجويف مظلم و قد كانت الصغار قد بدأت بالكاد تتعلم الطيران لقد قمنا بحساب 54 فردا منها و هذا العدد الصغير دليل على ندرته و بالتالي ضرورة المحافظة عليه ...

جلّم الماء المتوسطي
في يد الباحثة الفرنسية
كارين بورجوا

ميناء الجزيرة القديم، في الطريق كانت صغار طيور الغاق المتوج Phalacrocorax aristotelis بصدرها الأبيض الناصع واقفة على الصخور بانتظار الغطس في الماء لمسك سمكة و كنت تذكرت أننا و عندما كنا بزمبرتة و عند اقتراب الشمس من المغيب نراقب عودتها إلى الصخرة الكبيرة المحاذية للأرخبيل و المسماة بـ« القنّة» و التي تمثل مبيتا لها وقد لاحظنا أن أعدادها قليلة فهي لم تتجاوز الثلاثين نفرا...

عند نهاية رحلتنا شعرت أن هاته الطيور تحتاج محبتنا لأن المحبة وحدها هي التي تكفل بقاءها.

تركنا عنق الجمل و سحره نحو